الفصل الاول

اختراع الكلام والكتابة وأهمية التدوين في حياة البشر

يعتبر اختراع الكتابة الحد الفاصل بين عهدين : عهد ماقبل التاريخ والعهد التاريخي . والواقع لقد اصبح الانسان بالكتابة انساناً حقيقياً . ويميز العلماء والمؤرخون في تاريخ الانسانية بين عهدين : العهد الذي لم تصلنا سجلات مكتوبة عنه ، وهو عصر طويل موغل في القدم ، وتصلنا المعلومات عنه من البقايا المادية لشعوب تلك الفترة ؛ والعهد التاريخي الذي يبدأ عادة في اوائل الالف الثالثة قبل الميلاد حيث بدأت تصلنا سجلات مكتوبة استطعنا ان نتعرف بواسطتها على حياة تلك الشعوب .

ولكن هذا لايعني ان انسان ماقبل التاريخ لم يكن يجيد التفاهم مع اقرانه ، بالعكس نجد ان هذا الانسان تمكن أن يطور نظاماً ممتازاً للتخاطب والاتصال بالاخرين من ابناء جنسه . هذا ويوجد في تاريخ البشرية اختراعات ذات اهمية خاصة في حياة الانسان وتطور حضارته ونجاحه وتقدمه ، وان اختراع الكلام ، او بالاحرى تطوير الكلام ، هو واحد من تلك الاحداث التي صنعت التاريخ ، لان ذلك جعل بالامكان اشتراك اعداد كبيرة من البشر في مجموعات اجتماعية ، ولذا لم يكن تطوير الكلام نتاجاً انتجته غريزة الانسان الاجتماعية فقط ، ولكنه كان ايضاً عاملاً مهماً في تطور ونمو تلك الغريزة . ويعلق على الكلام واختراعه واهميته توساس استل Astle بقوله : [ان اعظم ماامتلكه الانسان هو الكلام ، وان اكثر الفنون فائدة هو فن الكتابة ؛ فقد ميز الاول الانسان عن المخلوقات المتوحشة ، وميزه الثاني عن البرابرة المتوحشين غير المتمدنين] [1] . وقد عبر عن نفس الفكرة بشكل اقوى بريستد Breasted حيث قال : [ان اختراع الكتابة وايجاد اسلوب

(1) Ullman, B.L. Ancient Writing and its influence. N.Y. , Cooper Square Publishers, 1963. P.4

للتسجيل على الورق له تأثير اقوى من اي انجاز عقلي احرزه الانسان في رقي الانسان ورفعة في سلم الحضارة . أنه ذو اهمية اكبر بكثير من جميع المعارك التي جرت ومن جميع الدساتير التي صدرت] [1] .

ولما كان تصورنا لاوائل الاشياء لايزيد أبداً عن حدس وتخمين ، فلخيالنا ان يرسل لنفسه العنان في تصور بداية الكلام . يجوز ان تكون اول صورة بدت فيها اللغة ـ ويمكن تعريف اللغة انها اتصال عن طريق الرموز ـ [يقصد بالرموز الاصوات والاشارات والتعبيرات والرسوم والكتابة] صيحة حب بين حيوان وانثاه ، وانك لترى في صيحات النذير والفزع ، وفي مناداة الام لصغارها ، وفي الزقزقة والنقنقة التي يعبر بها الحيوان عن فرحه بصوته او باتصاله بعشيره من الجنس الآخر واجتماعه افراداً لتبادل الاصوات من شجرة الى شجرة ، انك لترى في هذا كله الخطوات التمهيدية التي يجهد الحيوان في اجتيازها لكي يصل الانسان الى الذروة العليا ذروة الكلام .

لقد وجدت فتاة حوشية تعيش مع الحيوان في غابة بالقرب من شالون في فرنسا ؛ فلم يكن لها من كلام الا صرخات ودمدمات كريهة الوقع على المسامع . وان الاصوات الحية التي تنبعث في الغابات قد لاتكون ذات معنى لآذاننا التي تحضرت ، ولكنها ، مع اصوات الحيوانات، واصوات الطبيعة ـ كصوت الرعد والمطر . . . ـ هي الاساس الذي استند اليه تطور الكلمات والالفاظ واللغة الملفوظة في الانسانية كلها .

ويظهر ان الاشارات كانت لها الاهمية الاولى وللكلام المنزلة الثانية في تبادل المعلومات وايصالها وتبادل الافكار في العصور الاولى . واننا لنلاحظ انه اذا ما اخفق الكلام في الاداء وثبت الاشارات الى الطليعة . ففي القبائل الهندية في امريكا الشمالية ، التي تستعمل من اللهجات ما لايقع تحت الحصر ، يجيء العروسان من قبيلتين مختلفتين فيتبادلان الافكار ويتفاهمان بالاشارات اكثر من الكلام . وكان التفاهم بالاشارات من الاهمية في بعض اللغات الهندية بحيث

---

(1) Ibid.

تعذر على افراد قبيلة ارابا هو ARAPAHO ان يتحدثوا في الظلام . وحتى في ايامنا هذه فان الاشارة لاتزال تستعمل اكثر بكثير مما يتخيل المرء . فرجل الشرطة يستعمل الاشارة من اجل توحيد وتنظيم حركة مرور السيارات وهو قابع في مركزه على ركن من اركان الشارع . كذلك تستعمل الاشارة في كثير من الالعاب الرياضية .

ولقد اتى الكلام ، كوسيلة من وسائل الاداء استعملها الانسان ، بعد الاشارة ، وهو يتدرج من صوت يطلق للتحذير حتى يصل الى نظام للكلام معقد كل التعقيد يستعمل الوف الكلمات ويساعده عدد من النغمات . ويبدو ان الانسان البدائي استعمل الاصوات المطلقة والصيحات قبل استعماله نظاماً كلامياً .

وربما كانت أول الألفاظ الإنسانية صيحات تعبر عن العواطف كما هي الحال عند الحيوان . ثم جاءت ألفاظ الإشارة مصاحبة للإشارة بالجسم لتدل على الاتجاه ، ثم تلت ذلك أصوات مقلِّدة جاءت في أوانها المناسب لتعبر عن الأشياء والأفعال التي يمكن محاكاة أصواتها . ولاتزل كل من لغات الأرض تحتوي على فئات من هذه الألفاظ التي تحاكي بأصواتها الأشياء والأفعال ، على الرغم من الاف السنين التي مضت مليئة بالتغيرات والتطورات التي أصابت اللغة ؛ مثل : زئير ، همس ، تمتمة ، قهقهة ، أنين ، زقزقة . . . الخ .

ولكن الانسان البدائي لم يحصر نفسه في دائرة المفردات والاشياء الحسية والجزئية فقط ، ولكنه تمكن ، بعد فترة ، ان ينتقل الى مرحلة فكرية متطورة فاوجد الاسماء الكلية اي انه قام بعملية عقلية متقدمة هي عملية التعميم والتجريد . فلولا هذه الاصوات الغريبةالتي نسميها اسماء كلية لانحصر الفكر في الاشياء الجزئية التي يذكرها الانسان او يدركها عن طريق الحواس ، وخصوصا حاسة البصر . واغلب الظن انه لولا هذه الاسماء الكلية لما استطاع الفكر ان يدرك الانواع باعتبارها متميزة عن الاشياء الجزئية ، ولا ان يدرك الصفات متميزة عن اشيائها التي تتصف بها ، ولا ان يدرك الاشياء مجردة عن صفاتها . انه لولا الكلمات التي هي اسماء لانواع لاستطاع الانسان ان يفكر في هذا الرجل او ذاك ، ولكنه لم يكن ليستطيع ان يفكر في [الرجل] بشكل عام ، لان العين لاترى

الرجل العام المجرد ، بل ترى رجالاً مختلفين فحسب . فالعين ترى الاشياء الجزئية لاالانواع . ولقد بدأت الانسانية عندما فكر الانسان الاول في ايجاد لفظ هو اول رمز صوتي يدل على طائفة من اشياء متباينة كاسم منزل الذي ينطبق على المنازل كلها ، او لفظ انسان الذي يدل على افراد الانسان في كل زمان ومكان . ومنذ ذلك الحين انفتح امام التطور العقلي للانسان طريق جديد ليست له نهاية يقف عندها ، ذلك لان الكلمات للفكر بمثابة الالات للعمل ، والانتاج يتوقف الى حد كبير على تطور الالات .

ولاتحسبن لغات الشعوب الفطرية بدائية بالضرورة ، اذا اردنا بكلمة [بدائية] في هذا السياق اي معنى من معاني البساطة في التركيب . نعم ان كثيراً منها بسيط في الفاظه وبنائه ، لكن بعضها معقد البناء كثير الكلمات مثل لغاتنا ، بل هو ارقى في التكوين من اللغة الصينية ؛ ومع ذلك فتكاد اللغات البدائية كلها تحصر نفسها في حدود الحسي والجزئي ، وهي بصفة عامة ، فقيرة في الاسماء الكلية والمجردة . فسكان استراليا البدائيون الاصليون يطلقون اسماً على ذيل الكلب ، واسماً آخر على ذيل البقرة ، ولكن ليس في لغتهم كلمة تدل على [ذيل] بصفة عامة . واهل تسمانيا يطلقون على كل نوع من الشجر اسماً ، ولكن ليس عندهم كلمة واحدة تدل على الشجرة بشكل عام . وكذلك هنود تشكتاو Chactaw يطلقون اسماً على السنديانة السوداء ، وآخر على السنديانة الحمراء ، وثالثاً على السنديانة البيضاء ، ولكنهم لايعرفون كلمة واحدة تدل على السنديانة بصفة عامة ، ثم بالطبع ليس لديهم كلمة تدل على الشجرة بشكل عام . ولاشك ان اجيالاً من الناس تعاقبت قبل ان يستطيع الانسان ان ينتهي من اسم العَلَم الى الاسم الكلي المجرد . وفي قبائل كثيرة لاتجد الفاظاً تدل على الالوان مجردة عن الاشياء الملونة ، كلا ولاتدل عندها كلمات على مجردات مثل : نغمة ، جنس ، نوع ، مكان ، غريزة ، عقل ، كمية ، خوف ، امل . . . فمثل هذه الالفاظ المجردة تتكون وتتزايد ـ فيما يبدو ـ مع تقدم الفكر ، لان بينها وبين الفكر علاقة السبب والمسبب ، وهي بعد تكوينها تصبح ادوات تعين على دقة التفكير ، ورموزاً تدل على الحضارة .

ان الالفاظ لم تكن وسيلة للتفكير الواضح فحسب ، بل كانت سبيلاً لاصلاح التنظيم الاجتماعي كذلك ، لانها ربطت بين الاجيال المتعاقبة ربطاً عقلياً وثيق العرى ، بأن هيأت اهم وسيلة اصلح للتربية من جهة ، ولنقل المعارف والفنون من جهة اخرى . فبظهور اللغة برزت اداة جديدة تصل الافراد بعضهم ببعض بحيث يمكن للمذهب الواحد او العقيدة الواحدة ان تصب افراد الشعب في قالب واحد متجانس وفتحت طرقاً جديدة لنقل الاراء وتبادلها ، وزادت عمق الحياة زيادة عظيمة ، كما وسعت نطاقها ومضمونها .

واعظم هذه المزايا التي لالفاظ اللغة ـ بعد توسيعها للفكر ـ هي التربية . فالمدنية ثروة زاخرة تجمعت على الايام من الفنون والحكمة والوان السلوك والاخلاق ، ومن هذه الثروة الغزيرة يستمد الفرد في تطوره غذاء لحياته العقلية ، ولولا ان هذا التراث البشري يهبط الى الاجيال جيلاً بعد جيل لماتت المدنية موتاً مفاجئاً ، فهي مدينة بحياتها الى التربية .

لم تكن التربية البدائية تنتفع بالكتابة البدائية الا قليلاً ، او لم تكن تنتفع بها اطلاقاً . ولقد قويت ذاكرة الانسان البدائي بسبب انعدام المخطوطات التي تساعدهم على حفظ مايريدون الاحتفاظ به ، فتراهم يحفظون ويعون ثم ينقلون ما حفظوه ووعوه الى ابنائهم بتسميعهم اياه ، وهم يحفظون ويعون ويسمّعون كل ما يرونه مستحقاً ان يحتفظ به فيما يتعلق بحوادث تاريخهم وفي نقل تراثهم الثقافي . ولاشك ان اختراع الكتابة قد صادف معارضة طويلة من قبل رجال الدين على اعتبار انها في الارجح ستؤدي الى هدم الاخلاق وتدهور الانسان . فتروى اسطورة مصرية انه لما كشف الاله تحوت للملك تحاموس عن فن الكتابة ، أبى الملك الطيب ان يتلقى هذا الفن لانه يهدم المدنية هدماً وقال في ذلك : ان الاطفال والشبان الذين كانوا حتى الان يُرغمون على بذل جهدهم كله في حفظ ما يتعلمونه ووعيه ، لن يبذلوا مثل هذا الجهد اذا ادخلت الكتابة ، ولن يروا انفسهم في حاجة الى تدريب ذاكرتهم .

ونعود وننوه ان الانسان البدائي استعمل ، الى جانب الصوت والرموز والكتابة ، وسائل اخرى ووسائط اخرى لايصال افكاره واخباره للآخرين ، منها

استعمال الحصا من اجل العدد ، او تعيين شجرة عليها شرخ معين كمكان لاجراء المحاكمة ، حتى وصل الامر الى استعمال الاعلام بين السفن لايصال المعلومات والاخبار في البحر من والى السفينة القائدة لبقية السفن . هذا وان الاعلام نفسها تشكل نظاماً مجرداً كل التجريد من انظمة الاتصال الرمزي ، وهي تمثل كثيراً من الافكار المجردة كالملكية والوطنية والسلطة والسمعة والرتبة . . . وذلك حسب حجمها ولونها او وضعها على سارية المركب . كذلك تكون الاشارات الضوئية نظاماً ممتازاً للاتصال سواء في البر ام في البحر . ان مثل هذه الاشارات تستطيع القيام بالاتصال بالآخرين ، ولكنها محدودة الاستعمال والفائدة ، ذلك ان كل واحدة منها تعني شيئاً واحداً محدداً ، واذا جمعنا اثنين منها او اكثر لم يعد بالامكان فهم المقصود وربما حصل عكس المطلوب . ومالم يكن المرسل والمستلم ، في نظام ارسال المعلومات هذا ، مطلعين تمام الاطلاع على المقصود من هذه الاشياء فان من المستحيل الوصول الى نتيجة ، ولكن عندما تكون كل اشارة او حركة تمثل كلمة محددة او صوتاً محدداً ، فعندئذ يكون عندنا قاعدة صلبة لايجاد لغة مكتوبة .

وليس في وسعنا اكثر من التخمين اذا اردنا ان نبحث نشوء الكتابة واصلها . فيجوز انها كانت نتيجة تفرعت عرضاً عن صناعة الخزف ، وذلك بأن نشأت عن رغبة الناس في اثبات [العلامات التجارية] على ما يصنعونه من آنية خزفية .

ويجوز ان تكون زيادة التجارة بين القبائل قد اقتضت اصطناع مجموعة من العلامات المكتوبة ، وان تكون اولى رموزها صوراً غليظة اتفق عليها الناس لتدل على السلع التي يتبادلونهافي تجارتهم وعلى ما يقوم بينهم من حساب ، لانه ما دامت التجارة قد وصلت قبائل يتكلمون لغات مختلفة ، بعضها عن بعض ، فلابد من اتخاذ وسيلة للتدوين والتفاهم يفهمها الطرفان المتعاملان معاً . ولعل اولى محاولات الانسان البدائي للاتصال عن طريق الكتابة كانت مجرد علامة بسيطة : سهم ليدل على الاتجاه الذي جرت فيه حفلة صيد . وفي وسعنا ان نفترض ان قد كانت الارقام بين اول طائفة من الرموز المكتوبة ، وانها في معظم الحالات كانت تتخذ صورة خطوط متوازية تمثل الاصابع ، ولاتزال تستعمل كلمة ارقام في اللغة

الانكليزية التي تدل على ذلك الاصل المخطوط عندما يراد التعبير عن العدد [فكلمةFigure تعني بالانكليزية شكلاً مخطوطاًاو رقماً] . ثم لاتزال كلمات مثل خمسة في اللغات الانكليزية والالمانية واليونانية ترتد الى اصل لغوي معناه [يـد] . وتشير الارقام الرومانية بصورتها الى اصابع اليد ، فالعلامة الدالة على خمسة [V] تصور يداً مفتوحة ، والعلامة التي معناها ، والعلامة الدالة على عشرة [X] تتركب من علامتين من علامات الخمسة تقابلتا عند زاويتيهما .

وكانت الكتابة في بدايتها ـ كما لاتزال عند اهل الصين واليابان ـ ضرباً من الرسم اي كانت ضرباً من الفن . كما انها كانت عاجزة عن ايصال المقصود بوضوح فاستعملت منها مايسمى الادوات التذكيرية . فكما ان الانسان كان يستخدم الاشارات حين كانت تتعذر عليه الكلمات ، كذلك استخدم الصور ، الى جانب الادوات التذكيرية لينقل افكاره عبر المكان وخلال الزمان . فكل كلمة وكل حرف مما نستعمله اليوم كان فيما مضى صورة ، كما هي عليه الحال الآن في العلامات التجارية وفي التعبير عن ابراج السماء . والصور الصينية البدائية التي سبقت الكتابة كانت تسمى [كوروان] ومعناها الحرفي [صور الاشارات] .

وكان كثير من القبائل يستعمل الى جانب الكتابة التصويرية ، الادوات التذكيرية . فبعض القبائل كان يستعمل عصياً محزوزة لتذكرهم بشيء او ليبعثوا بها رسالة . وكانت هذه العصي تستعمل في بقاع كثيرة لتسجيل ما مضى من ساعات اليوم ، او لعد كمية المحصول . هذا وان وجود حزين في المجموعة تعني الحاجة الى عدد محدد من الرجال او النساء لجني المحصول او للقيام بعمل حربي . بعد ذلك اكتشف ان خيطاً فيه عقد افضل من غيره كاداة للتذكر ، فقد كان هنود البيرو يحتفظون بمدونات طويلة من الاعداد والافكار ، بان يعقدوا حبالاً مختلفة الالوان بالعُقد والعُرى ، ولابد انه نظام متقن تمكن ان يحفظ ويراقب اعمال وسجلات شعب عجيب لايعرف القراءة ، وبلغ من اهميته وتغلغله في حياة الشعب ان الغزاة الاسبان لم يتجرؤا على الغاء طريقة حفظ السجلات هذه في البيرو وربما القي شيء من الضوء على اصل هنود امريكا الجنوبية اذا عرفنا ان هذه العادة نفسها سادت بين سكان الارخبيل الشرقي واهل بولينيزيا والصين .

وهناك قصة تقول ان الملك داريوس عقد مع رجاله خيطاً فيه ستون عقدة . وقد تقرر ان تحل عقدة واحدة كل يوم ، واذا لم يعد الملك بعد ان تحل العقدة الاخيرة كان للرجال ان يرجعوا لاوطانهم . ولايحدثنا التاريخ ما اذا كانت العقدة الستون قد حلت ام لا ؟[1]

هذا وان هذه الاشارات والادوات التذكيرية لاتزال تحيط بنا من كل جانب مثل اشارات الطريق واشارات الوقوف والسير والخاتم حول الاصبع والعلم واشارة [V] للدلالة على النصر وعلامات التنقيط واحجار الشطرنج . ومن الممكن عمل لائحة مكثفة من هذه الادوات التي هي قسم اساسي من حياتنا اليومية .

الكتابة الاولى :

ان نمو الكتابة والكتب قضية وعملية تطورية . ان الاتجاه الذي بدأ مع رسوم الكهوف الاولى حتى وصل الى احدث الادوات الالكترونية اتجاه طويل ولكنه مستقيم وذو معنى ؛ فقد قادت كل خطوة بشكل منطقي الى الخطوة التالية ؛ فقد اتى اول الامر الكلام ثم الكتابة والان الاتصال الالكتروني ، وكل واحد من هذه المنجزات كان معجزة في حد ذاته .

ولقد بدأت الكتابة الاولى تصويرية اي تصور الشيء المراد ايصال فكرته او اخباره الى الاخرين .

لقد خلف سكان كهوف العصر الحجري الاول في اوربا وشمال افريقيا على جدران كهوفهم رسوماً وصوراً واضحة ودقيقة دقة مدهشة لبعض الحيوانات التي كانت موجودة آنذاك في اماكن عيشهم ، ولكنها انقرضت الآن ، مثل البيزون وغزال الرنة والحصان البري والماموث . لقد كانت اوائل الرسوم فجة ومن الصعب تمييز المقصود منها ، ولكن الاعمال المتأخرة فيها اعمال فنية حقيقية . وقد تمكن الفنان البدائي ان يرسم الحيوانات وهي في حالة حركة وعمل ، تمثلها وهي

(١) Rider, A. D. Ahistory of books and libraries Metuchen, N.J., The Scarecrow Press, 1976, P. 3

تركض او تقاتل او تأكل او تموت . . . ان هذا التطور غاية في الاهمية اذ تمكن فنانو الكهوف ان يجعلوا الصور تقص القصص وتسرد الحوادث . فهنا صورة فرس جموح ، وهذه صورة بيزون يركض وهكذا [١] . ولقد استعمل الرسام البدائي الوان الارض وشحوم الحيوانات في الوان سوداء وبيضاء وحمراء وصفراء لرسم صور واقعية وحقيقية للحيوانات وللبشر . وان الرسوم التي وجدت في كهوف الصحراء الكبرى في شمال افريقيا ويعود تاريخها الى ٤٠ الف سنة قبل الميلاد تمثل مشاهد اجتماعية ومشاهد عمل تضم كثيراً من الناس . ولايدرى ما اذا كانت هذه الرسوم الجدارية في الكهوف مجرد تعبير فني ام ان لها معنى دينياً أو طقسياً [٢] . لقد كانت هذه السجلات تدل على انها ذات اهمية في حياة هذه الشعوب ، ولكن الشيء المهم لنا نحن في هذا الصدد هو أن بشر ذلك العهد الموغل في القدم لم يتركوا صوراً فنية دقيقة لحيوانات ذلك العهد وكائناته الحية فقط ، ولكنهم استعملوا ما يمكن تسميته بمقابل مبسط لها ـ ملخصات مختصرة ـ يمكن اعتبارها ، حتى في ايامنا هذه ، بديلاً ذكياً لكلمة [ماموث] او غنزة . وبكلمة اخرى لقد افتتحوا عصر الكتابة بدون ان يكونوا واعين لذلك وبدون ان يدركوا القوة العظيمة التي افتتحوا عهدها في تاريخ العالم .

ولكن الذي لاشك فيه انه مرت الاف من السنين قبل ان يدرك الانسان ، الذي استعمل في بقاع كثيرة من الارض تصوير الاشياء كاسلوب للتسجيل والتدوين ، قبل ان يدرك اهمية ما خلقته يداه بهذه الكتابة التصويرية . ومما لاشك فيه فقد وجدت بدايات لاحصر لها في اماكن كثيرة من ارجاء العالم استعملت فيها الكتابة التصويرية وسيلة للتسجيل بشكل مستقل عن بعضها بعضاً . فقد استعمل هنود شمال امريكا الكتابة التصويرية اكثر من مساعد للذاكرة . فان سجل الشتاء او وصف الشتاء الذي حفظه هنود داكوتا من سنة ١٨٠٠ الى سنة ١٨٧٠ م كان عبارة عن سلسلة من ٧١ صورة رسمت على جلد

---

(١) Ogg, Oscar. The 26 letters. N.Y., The Thomas y., Crawell., 1961. P.20

(٢) Johnson, E.D. Communication... 4 the ed. Metuchen, N.J. Scarecrow Press, 1973. P. 12 – 13

ثور ، وكانت كل صورة تمثل اكثر الحوادث اهمية في شتاء سنة من السنين ، وكانت كافية لتذكير حافظ تاريخ القبيلة بما حدث، وان يصف تاريخ القبيلة في تلك السنة[1] . ولقد ادخل تحسين على هذه الطريقة وذلك عن طريق الصورة القصة او الصورة الرسالة وتمكن الهنود بهذه الطريقة من تبليغ رسائل حب ، او ايصال تقرير عن رحلة صيد او حتى معاهدة بين القبائل .

وبالحقيقة لايزال يوجد في العالم حتى في ايامنا هذه شعوب لاتزال تعيش في حضارة العصر الحجري ، او انها تطورت بعض التطور بحيث انها قد خطت الخطوة الاولى فحسب في سبيلها من العصر الحجري الى عصر المعادن . ولاتزال هذه السجلات التصويرية مستعملة عند شعوب مختلفة كهنود امريكا واسكيمو القطب الشمالي وبعض القبائل في جنوبي افريقيا وكثير غيرهم من الشعوب البدائية . ولكن كثيراً من سجلاتهم هذه قد اختفت دون ان تترك اثراً ، او انها لم تتطور عن المرحلة البدائية الفجة .

ولكن هذه السجلات التصويرية تطورت في بعض الاماكن الى انظمة كتابية حتى بالمعنى الحديث لكلمة كتابة . لقد وجدت بقايا لاحصر لها في اوربا من العصر الحجري الحديث والعصر البرونزي تمثل اسلحة وادوات اخرى مصنوعة من العظام او الحجارة او المعدن وقد نقشت عليها رموز تصويرية . هذا وان بعض هذه الرموز يمثل تماماً الاشياء الاصلية المنقوش عنها . ولكن وجد هناك كثير من الرموز التي لايمكن تفسيرها ؛ وهذه ، ان لم تكن مجرد زينة ، يمكن اعتبارها اشارات ورموزاً ابتعدت كل البعد عماتمثله من اشياء بحيث اصبح من الصعب التعرف عليها ، على الرغم من انها كانت ذات معنى محدد عند البشر الذين اوجدوها . لقد وجدت مثل هذه الاشارات والرموز في جميع بقاع البحر المتوسط من شبه الجزيرة الايبرية الى وادي النيل . ويبدو ان بعض هذه الرموز كان مجرد طواطم او علامات المالك .

---

(1) IBid. P. 14

لقد كانت السجلات التصويرية البدائية تستعمل كمساعد للذاكرة او لتبليغ اقتراحات اكثر من ان تكون اشارات دقيقة محددة لما تمثله ، ومن هذا النوع لغة هنود جنوبي الاسكا . فقد رسم احد الهنود هناك على قطعة من الخشب شخصاً انسانياً ماداً ذراعيه بشكل يمثل فكرة [العدم] او [عدم امتلاك شيء] ، الى جانب رسم آخر يمثل انساناً رافعاً يده الى فمه في هيئة الاكل . وجميع الرسم يوحي بفكرة عدم وجود شيء في المنزل ليؤكل[1] .

كيف تطورت هذه السجلات التصويرية حتى اصبحت كتابة حقيقية ؟ لايمكن اعطاء جواب تام ودقيق عن هذا السؤال ، لان ظروف هذه الخطوة العظيمة من خطوات التقدم الانساني لاتزال مختفية وسط مجاهل عصور ما قبل التاريخ . ولكن طبيعة القصة كلها واضحة كل الوضوح بشكل عام ، وينبع ذلك من أقدم النماذج التي عثر عليها للكتابة الحقيقية والتي درست دراسة علمية جيدة جادة . لقد اتضح من شكل وتفسير الاحرف التي استعملت في كتابة هذه السجلات الموغلة في القدم ، ان الانسان القديم الذي تمرن مدة على استعمال السجلات التصويرية قد استغل التشابه بين بعض الاشارات التصويرية وبين بعض الاغراض والافكار ، فحاول التعبير عن الثانية برموز مبسطة من الاولى . وهكذا تطورت الرموز التصويرية تدريجياً الى ما يمكن تسميته رموزاً فكرية او رموزاً تمثل افكاراً كلية مشتقة من اشياء مادية . ولقد ابدى الذكاء الانساني مقدرة في تطوير نظام يمثل الافكار المجردة بشكل مكتوب تصل الى حد المعجزة .

ولقد انتشرت الكتابة التصويرية في بقاع كثيرة من العالم واستعملها اقوام كثيرون ومتباعدون كل التباعد . وهناك خاصة مشتركة بين جميع الكتابات التصويرية التي وجدت في انحاء العالم وهو تشابهها العام فيما بينها . فقد ظهر الرمز الدال على العدم والذي ذكرناه آنفاً في الكتابات التصويرية التي استعملتها قبائل المايا في اليوقاتانMayas of Yucatan ، وهي قبائل هندية تسكن امريكا الجنوبية ، كما ظهر نفس الرمز في الكتابة المصرية الهيروغليفية . كما وان الكتابات

---

(1) Ullman. op. cit. P. 6

التصويرية تشترك في خاصة اخرى شائعة هي تقليدها للاشارات التي كانت شائعة بين الاقوام البدائية لايصال الافكار .

قد ثبت بشكل قاطع ان اقدم الكتابة كان تصويرياً ، ولاشك ان الانتقال من تصوير الشيء ذاته الى تصوير الفكرة التي يمثلها الشيء او تصوير الافكار المجردة قد استغرق وقتاً طويلاً ، ولكن ذلك تم على الغالب اما بواسطة الخيال المبدع ، او بواسطة تجميع الرموز التي تدل على اشياء مادية واستعمالها من اجل التعبير عن فكرة او شيء مجرد . وهكذا فالرمز الدال على [الاذن] امكن استعماله ايضاً للدلالة على [السمع] ورمز [الشمس] امكن استعماله من اجل [اليوم] وهكذا . ولانزال نجد في كتاباتنا اثاراً من الكتابات التصويرية ، مثل السهم الدال على الاتجاه .

ولقد ظلت الكتابة التصويرية مستعملة دون انقطاع من اقدم عصورها حتى الان . ومع مرور الزمن فقد جنحت الكتابة التصويرية لان تصبح اكثر اصطلاحية في اشكالها حتى لقد اصبح التعرف عليها اكثر صعوبة . وتعتبر الكتابة الصينية الممثل البارز لهذا النوع من الكتابة في هذه الايام . ولكن الكتابة التصويرية واجهت ، من اقدم عهودها ، عقبات خطيرة وكان لها حدود لم تتمكن من تخطيها . لقد زادت الحاجة الى خلق مزيد من الرموز التي تدل على الافكار الجديدة والاشياء المجردة التي نمت وتطورت مع ازدياد النشاط الانساني وزيادة تعقيده ، ومع النمو المتواصل للافكار . وهذا ما عجزت عنه الكتابة التصويرية . وعلاوة على ذلك ، فقد اصبح من المستحيل تعلم الاشارة والرموز التصويرية المتزايدة باستمرار حتى لشخص خصص كل حياته لذلك .

ولذلك تم الانتقال الى مرحلة ثانية هي مرحلة الكتابة التصويرية الفكرية . وهي تمتاز ببساطتها ووضوحها ، وهي تطور لآخر مراحل التصويرية . ومع ذلك فقد كان على المرء عندما يريد ان يعبر عن الاشياء المجردة ، مثل الشجاعة ، ان يمثل هذه الاشياء بشكل اكثر اتقاناً ودقة وتعبيراً . ففي الكتابة المصرية القديمة كانت صورة النسر تمثل النسر نفسه ، ولكن عندما اراد المصريون ان يستعملوا نفس الصورة للتعبير عن فكرة الالوهية او فكرة الروح

منحوه وجه انسان وجسدوا به هذه الفكرة . ورمز الماء مع رمز الفم يعني العطش ، كما ان جمع رمز العين والماء يعني البكاء . ولكن بقيت هذه الكتابة عاجزة عن التعبير الدقيق عن الافكار وبدأت الشعوب التي استعملت هذه الكتابة تحاول التخلص من الصعوبات التي اوجدها اتباعهم الكتابة التصويرية بنوعيها . ذلك ان اقدم السجلات المكتوبة التي وصلتنا يبدو فيها واضحاً الانتقال من الكتابة التصويرية التي تمثل فيها الرموز الافكار ، الى الكتابة الصوتية حيث تمثل الرموز الاصوات .

بدايات الكتابة الصوتية :

ولقد تطلب انجازالانتقال من الكتابة التصويرية الى الكتابة الصوتية عدة الاف من السنين ، وذلك بسبب معارضة طبقة رجال الدين التي احتكرت هذا الامتياز ، وطبقة الحكام التي ساعدتها في ذلك ، لان الكتابة الصوتية اسهل ويمكن ان تصبح هذه الكتابة اداة في يد الجماهير ، وهذا ما لاتريده الطبقة الممتازة التي احتكرت العلم والثقافة لنفسها .

ان من السهل ان نرى كيف تم الانتقال من الكتابة التصويرية الى الكتابة الصوتية . لقد اقترنت اغلب الرموز التصويرية في اساليب الكتابة التصويرية القديمة مع اصوات الكلمات الملفوظة التي اعطيت لتسمية الاشياء التي تمثلها الرموز . ولقد كان من الطبيعي ان يمثل صوت الكلمة فذلك اسهل من استعمال الرمز ، وذلك عند شعورنا ان مثل ذلك اصبح مرغوباً فيه . اننا نفترض ان مثل هذا التغيير بدأه بعض الكتاب القدامى عندما ووجهوا بكتابة بعض الاسماء الاجنبية ، او بكتابة اسم احد انباء جلدته وليس لديه رمز يمثله . لقد استطاع ان يحل هذه المشكلة افضل حل وذلك باستعماله المقاطع الصوتية التي تمثل الاسم الشاذ الغريب . فمثلاً مر مع الكاتب اسمManhattan وليس لديه للتعبير عنه سوى الرموز التصويرية وليس بينها رمز يدل عليه ، ولذلك استعمل في كتابته ثلاثة رموز ؛ وهي رمز الانسانMan ورمز القبعةHat ورمز العشرةTen . واذا امكن استعمال رمز الانسانMan في هذه الكلمة ، امكن استعماله في كل كلمة

فيها صوت يمثله ذلك الرمز مثل كلمةHuman ,Mandate هكذا كانت البدايات الاولى للكتابة الصوتية التي وجدت بشكل فج بدائي في اقدم السجلات المكتوبة . ولكن القضية التطورية سارت شوطاً ابعد واعقد . فالرمز المكتوب الذي امكن استعماله ليمثل صوت كلمة كاملة يمكن استعماله مع مضي الزمن ليمثل رمز تلك الكلمة او صوتها . وهكذا فرمز كلمة [رجل] التي تمثل باحرفها الثلاثة رجلاً من الرجال امكن استعمالها ليس فقط لصوت رجل ، وانما امكن استعمالها ايضاً ، مع تطور الكتابة الصوتية المستمر ، لتمثل صوت رج ، ومن ثم لتمثل صوت حرف الراء .

وهكذا اصبح الرمز يسمى بموجب الصوت الاول من الكلمة التي يمثلها الرمز . فان رمز الفم في اللغة والكتابة المصرية القديمة هوO . وتعني في اللغة المصرية كلمة روRO الفم ، ولذلك اصبح الرمزO يمثل الصوتR . ورمز الثور في الفينيقية هوD ويسمى الثور في الفينيقية الفAleph واصبح الرمزD هو Aويسمى الف . هذا وان تسمية الرموز بهذه الطريقة كانت خطوة قريبة كل القرب من الألفبائية .

الكتابة المصرية :

ان الحضارة المصرية القديمة تتعاصر مع حضارة سومر ، ولايزال البحاثة والمؤرخون مختلفين حول اسبقية حضارة مصر او حضارة سومر . ونحن هنا لايهمنا هذا الجدل ، وانما يهمنا القول ان المصريين القدامى وسكان بلاد الرافدين القدامى [السومريون في جنوبي البلاد والاكاديون في شمالها] اوجدوا في كل من مصر وبلاد الرافدين اولى الحضارات الانسانية . ولقد كانت الكتابة في كلا البلدين احد الانجازات الحضارية الكبرى لتلك الشعوب . هذا وان اقدم النصوص المكتوبة في كلا البلدين يعود تاريخها الى الربع الاخير من الالف الرابع قبل الميلاد .

لقد وصل قدماء المصريين الى حد الاستطاعة ان يكتبوا كتابتهم بنجاح تام بطريقة تصويرية ومن ثم صوتية ، او بالطريقتين معاً . ويبدو ان اقدم النماذج في الكتابة المصرية كانت تصويرية ، تعبر عن الشيء برسم صورة له . فكانت كلمة

بيت مثلاً[وهي في اللغة المصرية بد] يرمز لها بشكل مستطيل ذي فتحة في احد طوليه . ولما كانت بعض المعاني مجردة الى حد يصعب معه تصويرها حرفياً ، فقد استعيض عن التصوير بوضع رموز للمعاني ، فكانت بعض الصور تتخذ بحكم العادة والعرف للتعبير عن الفكرة التي توحي بها لاعن الشيء المصور نفسه . فكان مقدم الاسد يعبر عن السيادة [كما في تمثال ابي الهول] ، وكان الزبنور يعبر عن الملكية وفرخ الضفدع عن الالاف . وقد سميت هذه اللغة الهيروغليفية ـ وهي كلمة يونانية مركبة من كلمتين الاولى مقدس والثانية ينقش ـ هذا وان الغاية الرئيسية من كتاباتهم هذه هي ايجاد اداة فعالة وناجعة ليخلدوا على الاثار والمعابد منجزات واعمال ملوكهم ، ولقد اكتشف بعد فترة قصور هذه الكتابة عن تمثيل الافكار المجردة ، ولذلك سارت عملية التطور خطوة كبيرة الى الامام ، ولكن في نفس الاتجاه العام للكتابة . ذلك انه اصبح بامكان الكاتب المصري ان يعبر عن المعاني المجردة التي عجز اول الامر عن تمثيلها ، وذلك برسم صور للاشياء تشبه اسماؤها مصادفة الالفاظ التي تعبر عن المعاني . من ذلك ان صورة المزهر لم تكن تعني المزهر نفسه فحسب ، بل كان معناها ايضاً طيب او صالح ، لان نطق اسم المزهر في اللغة المصرية ـ نِفِر ـ شبيه بنطق اللفظ الذي يعبر عن معنى طيب او صالح ـ نُفِر ـ ونشأت من هذا الجناس اللفظي ، اي من الالفاظ المتفقة في اللفظ والمختلفة في المعنى ـ تراكيب غاية في الغرابة ـ من ذلك ان فعل الكينونة كان يعبر عنه في لغة الكلام بلفظ خو بيرو .وقد عجز الكاتب المصري ، اول الامر ، عن ايجاد صورة يمثل بها هذا المعنى الشديد التجريد ، حتى اهتدى اخيراً الى تقطيع الكلمة الى ثلاثة مقاطع خو ـ بي ـ رو ، ثم عبر عن هذه المقاطع الثلاثة بصور الغربال [الذي يعبر عنه بلغة الكلام بلفظ خو] وبالحصيرة [بي] وبالفم [رو] . وسرعان ما جعل العرف والعادة ، اللذان يخلعان القدسية على كثير من السخافات ، هذا الخليط العجيب من الحروف يوحي بفكرة الكينونة . وعلى هذا النحو عرف الكاتب المصري مقاطع الكلمة والصورة التي ترمز لكل مقطع ومجموعة الصور التي ترمز لكل لفظ ، فكان الكتاب يقطعون الكلمة مقاطع ويبحثون عن الالفاظ المشابهة لهذه المقاطع نفسها في النطق ، والمغايرة لها في

المعنى ، ويرسمون مجموعة الاشياء المادية التي توحي بها اصواتها ، حتى استطاعوا اخر الامر ان يعبروا بالعلامات الهيروغليفية عن كل ما يريدون . فلا يكاد يوجد معنى من المعاني لايستطسعون التعبير عنه بعلامة او بمجموعة من العلامات .

ولم يكن بين هذا وبين اختراع الحروف الهجائية الا خطوة واحدة . لقد كانت العلامة الدالة على البيت تعني اولاً كلمة بيت ـ بر ـ ثم اصبحت رمزاً للصوت ـ بر ـ ، ثم لهذين الحرفين اياكانت حركاتها وفي أية كلمة جاءتا . ثم اختصرت الصورة واستخدمت للدلالة على الباء ايا كانت حركتها وفي أية كلمة كانت . واذا كانت الحركات لاتكتب عقب الحروف بل تهمل تماماً فان هذه الصورة تمثل حرف الباء . وعلى هذا النمط عينه اصبحت العلامة الدالة على اليد [وتنطق باللغة المصرية دُت] تعني دُ ، دَ ثم اصبحت هي حرف د . وكذلك صارت العلامة الدالة على الفم [رُ ، رَ] ثم اصبحت حرف الراء والعلامة الدالة على الثعبان هي حرف ز ، وعلامة البحيرة [شى] هي حرف ش ... وهكذا .

لقد استعمل المصريون رموزاً كثيرة جداً ، بلغ عددها حوالي ٣٠٠٠ اشارة ، اثناء تطويرهم لمثل هذا الاسلوب الصوتي من الكتابة مما سبب لهم كثيراً من الاضطراب . لقد استعملوا حوالي عشرين رمزاً للحرفA وحوالي ثلاثين للحرفH ، وهكذا . وقد بلغ مجموع هذه الرموز ما بين المائتين الى الاربعمائة ، وكان من الممكن استعمالها كلها صوتيا مع حوالي [٩٠] رمزاً اساسياً تستعمل في المساعدة على اثبات هوية الكلمات . ولقد قضت العادة ان يستعمل بعض هذه الرموز في المناسبات الخاصة . وعلى الرغم من وجود رموز مختلفة يمكن استعمالها لكتابة احرف A,M,N، إلا أنه استعمل شكل موحد من انواع الرموز لكتابة اسم الالة آمون . وكذلك خصص لكتابة اسماء الملوك عدد من الاحرف الصوتية اعتبرت مفضلة لذلك . ولكن استعمال بقية الرموز خضع لرغبات واذواق الكتاب المتعددي النزعات والمشارب .

ولم يتخذ المصريون لهم كتابة قائمة كلها على الحروف الهجائية وحدها ، لحكمة في ذلك او لغير حكمة ، بل ظلوا حتى آخر عهود حضارتهم يخلطون بين

حروفهم وبين الصور الدالة على الرموز وعلى الافكار ، وعلى مقاطع الكلمات . ومن اجل ذلك صعب على العلماء ان يقرأوا الكتابة المصرية . ولكن من السهل علينا ان نتصور ان هذا الخلط بين الكتابة بالطريقة المعتادة وبطريقة الاختزال ، قد سهل عملية الكتابة للمصريين الذين كانوا يجدون فسحة من الوقت لتعلمها .

ولتسهيل عملية تعلم وحفظ الاربعمائة رمز هيروغليفي ومعانيها المقطعية واستعمالاتها على شكل حروف هجائية نشأ شكل سريع سهل من اشكال الكتابة ، استخدم في الكتابات العادية واحتفظ بالطراز الاول منها ليستخدم في النقوش المقدسة على الآثار . واذا كان الكهنة وكتبة الهياكل هم اول من مسخ هذه الكتابة الهيروغليفية على هذا النحو فقد اطلق عليها اليونان اسم الكتابة الهيراطية [المقدسة] ، ولكن سرعان ما عم استعمالها في الوثائق العامة والتجارية والخصوصية . ثم نشأ على يد الشعب نفسه نمط آخر من الكتابة اكثر من النمط الثاني اختصاراً واقل عناية ، ولذلك سمي بالكتابة الديموطية [الشعبية] . ولكن المصريين كانوا يصرون على ان لاينقشوا على آثارهم الا الرموز الهيروغليفية الفاخرة الجميلة ، ولعلها اجمل نمط من الكتابة عرف حتى الآن .

الكتابة في بلاد الرافدين :

سكن في جنوبي بلاد الرافدين ، من عصر موغل في القدم ، قوم عرفوا بالسومريين . ولايعرف بالضبط اصلهم ، الا ان المقطوع به انهم ليسوا ساميين . ولقد اوجدوا حضارة متقدمة ووجد لديهم لغة مكتوبة وسجلات ومكتبات وادب متطور وعلوم وكل مظاهر الحضارة . ولن نبحث هنا اصل السومريين ولا منجزاتهم الحضارية ، وانما يهمنا هنا اسلوب الكتابة الذي طوروه . وعلى الرغم من ان بعض البحاثة ذكر ان السومريين هم الشعب الذي يوصف انه اقدم من اوجد عملية الكتابة بمعناها الحقيقي [1] ، الا انه وجد بحاثة آخرون يشكون ما اذا كان السومريون هم الذين اخترعوا الكتابة في بلاد

(1) Encyclopedia of library and information Science. Ed. by, V.4 . P.1

الرافدين [1] . ومهما يكن من شيء فالكل مجمعون على انهم طوروا فن الكتابة عندهم بطريقة خاصة ادت الى ظهور الكتابو المسمارية . ولقد اشترك في تطوير فن الكتابة في بلاد الرافدين السومريون ومن بعدهم البابليون ومن ثم الاشوريون . لقد تمكن السومريون والبابليون من ايجاد وتطوير نظام للرموز الصوتية ، ولكن هذه الرموز اتجهت نحو ان تكون مقطعية . وهكذا وجد اشارة مستقلة مكتوبة لكل من المقاطع التالية كا ، كو ، كي ... الخ . وتوصف الكتابة السومرية انها كتابة متعددة المقاطع ، فقد ارتبطت جميع الصور السومرية مع الكلمات التي كانت تقرأ بواسطتها . فقد كان الجبل يلفظKur . وهكذا فالرمز المخصص للجبل كان يقترح بالضرورة صوتKur . والرمز المخصص للماء يقرأa ، والرمز المخصص للفمKa . ان هذه الاصوات المختلفة قد اشتركت اشتراكاً وثيقاً مع صور الاشياء التي كانت تدل عليها . ان الطريقة الوحيدة لكتابة اسم ليس له ما يمثله من قبل هو ان نحشد سوية رمزين او ثلاثة رموز بحيث ان الصوت المركب الناتج يمكن ان يمثل اما اسم الشخص او الفكرة الخاصة التي نريد التعبير عنها . وهكذا اذا اراد الكاتب ان يمثل اسم شخص ولنفرض انه كوراكاKurakaفان عليه ان يكتب الرمز الدال على الجبل والرمز الدال على الماء والرمز الدال على الفم ، وينسى فوراً ما تمثله هذه الرموز من اشياء مادية .

وتعتبر الكتابة من اروع ما خلفه السومريون . ويبدو هذا الفن عندهم فناً عظيماً راقياً كل الرقي صالحاً للتعبير عن الافكار المعقدة كالتجارة والشعر والدين والادب . والنقوش الحجرية اقدم ما عثر عليه من نقوش ، ويرجع تاريخها الى حوالي ٣٠٠٠ ق.م . وتبدأ الالواح الطينية في الظهور حوالي ٢٨٠٠ ق.م ، ويلوح ان السومريين بدأوا يجدون منذ ذلك الوقت في هذا الكشف ما ترتاح اليه نفوسهم ويفي باغراضهم . ولقد كان من حسن حظنا ان سكان وادي الرافدين لم يكتبوا بالمداد السريع الزوال على الورق السريع العطب القصير الاجل ، بل كتبوا على الطين الطري ونقشوا عليها ما يريدون نقشه بسن آلة حادة كالاسفين أو

---

(1) Chiera, Edward. They Wrote on Clay... ed. by G.Q. Cameron. Chicago, Phoenix Books, 1957. P. 50. P. 26.

باستعمال قلم من الغاب ذي رأس مثلث الشكل يدعىStylus . وان من اهم نتائج استعمال الطين الطري كمادة كتابية لدى السومريين هو الكتابة المسمارية . فقد اتت كلمة مسماريةCuneiform من مقطعين لاتينيين الاولCuneus والثاني Forma اي شكل الاسفين . ولقد بذل اوائل الكتبة قصارى جهدهم لجعل صورهم المكتوبة على الطين الطري مشابهة للموضوعات الاصلية التي تمثلها تلك الصور ،ولكن ، مع ذلك ، زالت عبر العصور تلك الصور ولم يعد الكتبة يمثلون سوى الرموز التي تطورت عن الصور القديمة . ولقد فقدت غالبية هذه الرموز كل شبه يربطها بسابقاتها التي اشتقت منها ، ولكن اصبح لها قيم صوتية لاعلاقة لها بالرموز الصورية التي كانت تمثلها ..وكان الكتاب السومريون جد مهرة واستطاعوا ان يحتفظوا بفضل كتاباتهم ولوحاتهم الفخارية بالسجلات وان يدونوا العقود ويكتبوا الوثائق الرسمية ويسجلوا البيوع والممتلكات والاحكام القضائية ، وان يخلقوا من هذا كله حضارة لم يكن القلم فيها اقل قوة من السيف . وكان الكاتب اذا اتم ما يريد كتابته جفف اللوح الطيني في النار او عرضه لحرارة الشمس فجعله بذلك مخطوطاً ابقى على الدهر من الورق ، ولايفوقه في طول العمر الا الحجر وحده . وكان نشأة هذه الكتابة المسمارية وتطورها اعظم ما للسومريين من فضل على الحضارة العالمية . وتقرأ الكتابة السومرية من اليمين الى اليسار . والبابليون ، فيما نعلم ، هم اول من كتب من اليسار الى اليمين . ولعل الكتابة في سطور كانت نوعاً من العلامات والصور التي جرى بها العرف والتي كانت تنقش او تصور على الاواني الخزفية السومرية البدائية . واكبر الظن ان الصور الاصلية قد صغرت وبسطت خلال القرون وبسبب الرغبة في سرعة كتابتها . حتى اصبحت شيئاً فشيئاً علامات تختلف في شكلها اختلافاً تاماً عن الاشياء التي كانت تمثلها ، فصارت بهذا رموزاً للاصوات لاصوراً للاشياء . وكما قلنا سابقاً ، فان الكتابة السومرية متعددة المقاطع . وهنا يستطيع المرء ان يتخيل العدد الكبير من المقاطع المزدوجة التي كانت تمتلكها تلك اللغة في مفرداتها ، ولكن ، مع مرور الزمن ، ركز الكتاب على استعمال رمز واحد من هذه الرموز المزدوجة والمتضاعفة اكثر من البقية ، حتى اصبح هذا الرمز هو وحده الممثل لذلك الصوت .

ويغلب على الظن ان الانتقال من الكتابة الى الادب تطلب عدة قرون . فقد ظلت الكتابة قرونا عدة اداة تستخدم في الاعمال التجارية لكتابة العقود والصكوك وقوائم البضائع التي تنقلها السفن . . . ولعلها كانت ايضاً اداة لتسجيل الشؤون الدينية ومحاولة الاحتفاظ بالطلاسم السحرية والاجراءات المتبعة في الاحتفالات والمراسم والاقاصيص الدينية والصلوات والتراتيل حتى لاتبيد ولا يدخل عليها المسخ والتغيير . ومع هذا لم يحل عام ٢٥٠٠ ق.م حتى كان عدد كبير من دور الكتب العظيمة قد انشيء في المدن السومرية . فقد كشف دهسرزاك في مدينة تللو مثلاً ، وفي انقاض ابنية معاصرة لحكم غوديا مجموعة مؤلفة من ثلاثين الف لوح موضوعة بعضها فوق بعض في نظام انيق منطقي دقيق . وبدأ المؤرخون السومريون منذ عام ٢٠٠٠ ق.م يكتبون ماضيهم ويسجلون حاضرهم ليخلفوه لمن يجيء بعدهم .

وتعتبر الكتابة المسمارية هذه ثورة في عالم الخطوط والكتابة بالنسبة للكتابة التصويرية القديمة ، ولكنها كانت نوعاً مبسطاً من الكتابة المبسطة ومقطعية ويحتاج تعلمها الى عدد من السنين تخصص لدراستها واتقانها .

ولقد حيرت الكتابة البابلية العلماء فظلوا مئات السنين عاجزين عن حل رموزها . وكان نجاحهم في حلها آخر الامر عملاً من أجل الاعمال في تاريخ العلم .

ولقد ثبت من الابحاث المتواصلة التي جرت ، ومن دراسة اللوحات البابلية ان اللغة البابلية القديمة لغة سامية نشأت من تطور لغتي سومر وأكاد ، فكانت تكتب بحروف سومرية الاصل ، ولكن مفرداتها اختلفت عنها على مر الايام ، حتى استلزم هذا الاختلاف بين اللغتين السومرية والبابلية وضع معاجم وقواعد في النحو والصرف يستعين بها العلماء والكهنة من الشبان على تفهم اللغة السومرية [الفصحى] والكتابات السومرية الكهنوتية . ومن اجل هذا نرى نحو ربع الالواح التي عثر عليها المنقبون في المكتبة الملكية في نينوى معاجم في اللغات السومرية والبابلية والاشورية وكتباً في نحوها وصرفها . والعلامات في اللغة البابلية كالعلامات في اللغة السومرية لاتدل على حروف وانما تدل على مقاطع ،

ذلك ان البابليين لم يضعوا لها حروفاً هجائية مستقلة ، بل ظلوا طوال عهدهم قانعين بطائفة من المقاطع يرمزون لها بنحو ثلاثمائة علامة من العلامات . فكان بامكانهم ان يمثلوا برمز واحد خرفاً صوتياً وآخر ساكناً مثل المقطعBa او معكوسة Ab .

وقد كان حفظ هذه الرموز المقطعية عن ظهر قلب ودراسة قواعد الحساب والتعاليم الدينية المنهج المقرر في مدارس الهياكل حيث كان الكهنة يلقنون الناشئة ما هو جدير بالدرس والمعرفة .

ولم يواصل البابليون والاشوريون من بعدهم تطوير كتابتهم حتى تصبح هجائية ، ويبدو انه لايمكن اتهامهم بانهم كانوا عاجزين عن مواصلة تطوير كتابتهم حتى تصل الى نهايتها المنطقية التي هي الهجائية ، بل يبدو انهم رفضوا ان يدخلوا اية تغييرات اخرى على كتاباتهم وذلك بروح المحافظة من جهة ، ولخوفهم من قطع صلتهم بتراثهم القديم الموروث العزيز على قلوبهم مما جعلهم يرفضون اي تغيير . فقد كانوا يعرفون جيداً ان بامكانهم ، مع بعض التغييرات القليلة ان يوجدوا نظاماً هجائياً ،لانه وجد بين ظهرانيهم كتاب اتوا من بلاد اجنبية . ولكن البحاثة رفضوا ان يتخلوا عن تقاليدهم القديمة واستمروا عليها .

وكان البابليون ، كاسلافهم السومريين وخلفائهم الاشوريين ، يكتبون على الواح من الطين الرطب بقلم ذي طرف شبيه بالمنشور الثلاثي او الاسفين ، فاذا امتلأ اللوح كتابة حفظوه او حرقوه فكان بذلك مخطوطاً غريباً طويل البقاء . واذا كان المخطوط رسالة نثر عليها التراب الناعم ووضعت في مظروف من الطين وبصمت بخاتم مرسلها الاسطواني . وكانت الالواح الطينية المحفوظة في جرار مصنفة ومرتبة على رفوف تملأ عدداً كبيراً من المكتبات في هياكل الدولة البابلية وقصورها ، ولقد ضاعت هذه المكتبات ، ولكن واحدة من اعظمها وهي مكتبة بورسيا قد نسخت وحفظت في مكتبة اشوربانيبال ، وكانت الواحها البالغ عددها ٣٠٠٠٠ لوح اهم مصدر استقينا منه معلوماتنا عن الحياة البابلية .

هذا وقد اوجد السومريون والبابليون والاشوريون حضارة رائعة وخلفوا آداباً رفيعة في حد ذاتها ، واصبحت الآن اللغة الاشورية والكتابة الاشورية مهمة

كل الاهمية لفهم بعض اللغات السامية الاخرى التي تشابهها كل المشابهة ولاسيما اللغة العبرية ، واصبح علم الاشوريات في كثير من المعاهد علماً مهماً كل الاهمية ويدرس لذاته وابعدت عنه الدراسات العبرية .

الكتابة الصينية :

لقد بدأت الكتابة الصينية تصويرية ، ولكن هذه الكتابة وصلت في حدود سنة ١٠٠٠ ق.م الى درجة من التطور المنهجي بحيث اختفت نهائياً العناصر التصويرية منها ، ثم تمركزت في شكل الكتابة المقطعية التي ظلت ثابتة على حالها حتى ايامنا هذه . ولغة الصينيين تختلف عن سائر لغات العالم ، ذلك انه ليس لها حروف ولاهجاء ولانحو ولاتنقسم الى اسماء وافعال وحروف . فكل كلمة فيها قد تكون اسماً او فعلاً او صفة او ظرفاً بحسب سياقها وطريقة النطق بها . ولما كانت اللهجات الكلامية لاتحتوي على اكثر من ثلاثمائة او اربعمائة لفظ صوتي ذي مقطع واحد ، ولما كانت هذه المقاطع هي التي تستعمل للتعبير عن الاربعين الف حرف المستخدمة في اللغة الكتابية ، فان لكل واحد من هذه الالفاظ الصوتية [نغمات] تختلف من اربع الى تسع بحيث يختلف معناه باختلاف طريقة التغني به .

وكانت لغة الكتابة اكثر اختلافاً عن سائر لغات العالم من لغة الكلام ، وهي لاتزال تستعمل في التعبير عن اللغة الصينية ، ولذلك فان اللغة الصينية هي اقدم اللغات التي ينطق بها الناس في هذه الايام واوسعها انتشاراً . وكان الصينيون في بادئ الامر يعقدون عقداً في خيوط لينقلوا بها رسائلهم ، واكبر الظن ان حاجة الكهنة الى نقل الطلاسم السحرية وحاجة الفخرانيين الى تمييز آنيتهم بعضها عن بعض هي التي ادت الى الرموز التصويرية . وكانت هذه الرموز المصورة البدائية منشأ العلامات الستمائة ، وهي الرموز الاساسية في الكتابة الصينية . وقد سمي نحو مائتين واربعة عشر رمزاً منها [اصولاً] لانها عناصر اساسية . وجميع حروف اللغة الدارجة ، والحروف المستعملة في الوقت الحاضر ، رموز معقدة غاية التعقيد اثقل فيها العنصر التصويري البدائي بزيادات كثيرة يقصد بها تحديد معنى اللفظ

تحديداً واضحاً ، ويكون ذلك في العادة ببيان مايطرأ من تغيير على نغمته . ولم يكتف الصينيون بأن يجعلوا لكل كلمة ينطقون بها علامة ، بل انهم يجعلون لكل فكرة ايضاً علامة خاصة . فهذه علامة يرمز بها للحصان ذي البقعة البيضاء في جبهته . ولايزال بعض هذه الرموز بسيطاً بساطة نسبية : فالقوس فوق خط مستقيم [اي الشمس فوق الافق] معناهما الصباح . والشمس والقمر مجتمعين يمثلان [الضوء] . والفم والطائر معاً معناهما [الغناء] . والمرأة تحت سقف معناها [السلام] . والمرأة والفم والعلامة الدالة على الالتواء يتكون منها الرمز الدال على معنى [خطر] . والنزاع يعبر عنه بامرأة ذات فمين . والزوجة يعبر عنها بالعلامات الدالة على امرأة ومكنسة وزوبعة .

ولقد استطاع اهل هذه اللغة البدائية ـ من بعض الوجوه ـ ان يبقوها حية بمحافظتهم الشديدة عليها . والصعوبات الكامنة في هذه اوضح من مزاياها وفضائلها . ويقال ان الصيني يحتاج الى ما بين عشر سنين وخمسين سنة ليتعلم فيها جميع الاربعين الف رمز التي تتكون منها لغته . غير ان الصيني العادي يكفيه ثلاثة آلاف علامة أو أربعة آلاف ، وإن من السهل عليه أن يعرف هذا العدد بمعرفة اصولها سالفة الذكر . واوضح ميزة لهذه اللغة المكتوبة هي ان الكوريين واليابانيين يسهل عليهم ان يقرأوها كما يسهل ذلك على ابناء الصين . يضاف الى ذلك انها تجمع في نظام واحد من نظم الكتابة بين جميع سكان الصين الذين تختلف لهجاتهم اختلافاً يجعل التفاهم بينهم يكاد يكون مستحيلاً ، حتى الرمز الواحد يقرأ باصوات مختلفة وكلمات مختلفة في مختلف البيئات ، ذلك ان لغة الكتابة بقيت واحدة في جوهرها ، على حين ان لغة الكلام قد تفرعت الى ما ينوف على مائة من اللهجات . ومن اجل هذا كان في وسع الصيني غير الامي ان يقرأ الادب الصيني الذي ظل يكتب بهذه الحروف نحو الفي عام كاملة . ولذا كانت الكتابة الصينية عامل توحيد في عالم مختلف . ولذا حرص القوم عليها وتمسكوا بها اشد التمسك لئلا يؤدي التغيير الى تمزق الامة التي يحرصون على وحدتها اكثر من اي شيء آخر .

كتابات اخرى :

لابد من ملاحظة ان عملية تطور الكتابة اختلفت عبر الزمان والمكان . فبعض الكتابات لاتزال تصويرية ، وبعضها وصل الى مرحلة المقطعية ، وبعضها اصبح هجائياً . وهناك مناطق في العالم سارت فيها العملية التطويرية ابعد واسرع مما سارت في اماكن اخرى . كما وان كثيراً من الكتابات زالت من الوجود ، وبعضها اكتشف وبعضها اما زال او انه لازال غارقاً في الظلام ، كما وان كثيراً من الكتابات درست وحلت رموزها ، على حين لايزال هناك كتابات غامضة تنتظر من يحل رموزها وقد بذل العلماء والمؤرخون جهوداً جبارة في هذا السبيل ، ولايزالون .

ولقد حل وفهم معنى كثير من الكتابات القديمة التي اكتشفت ، وذلك عند وجود امثلة كثيرة من نفس النوع ، او وجد نصوص كتبت بعدد من اللغات والخطوط . فمثلاً كتب الحثيون الذين عاشوا في اسيا الصغرى وشمالي سورية ، وعاصروا المصريين والبابليين وتأثروا بهم ، لغتهم بالكتابة التصويرية وبالكتابة المسمارية التي استعاروها من البابليين . وقد تمكن العلماء من حل رموز الكتابة الاخيرة وحققت خطوات كثيرة في سبيل حل رموز الكتابة الاولى . كما وانه تم نجاح مماثل في حل الكتابات التي اكتشفت في كريت في اواخر القرن الماضي واوائل هذا القرن على يد البحاثة الانكليزي سيرارثر ايفانس وغيره . ذلك ان كريت اصبحت في النصف الثاني من الالف الثاني قبل الميلاد مركزاً من مراكز الحضارة الرفيعة في البحر الابيض المتوسط ووصل اشعاعها الى ارض اليونان ومنطقة البحر الايجي . ولقد اوجد الكريتيون نظاماً مقطعياً للكتابة هو عبارة عن كتابة متصلة الحروفCursive وقد اسماها العلماء باسمLinear B ولقد جرت عدة محاولات لتفسير وقراءة نصوص هذه الكتابة ، ولكن لم يكتب لاحدها النجاح . ولكن تمكن في الخمسينات من هذا القرن عالم شاب من انكلترا هو مايكل فانتريس Micheal Ventris ان يحل رموز هذا الخط . فقد افترض هذا الباحث ان خط لانير بLinear B هو لغة اغريقية او على الاقل شكل قديم من اشكال الاغريقية . وقد كان استنتاجه صحيحاً وتمكن عن طريق تطبيق مبدأ الدراسة

الموازنة التحليلية ان يحل رموز هذا الخط القديم حلاً جيداً مقبولاً وكان ذلك سنة ١٩٥٢ م . كذلك لايزال يوجد كثير من الكتابات القديمة التي لم تحل رموزها وهي بانتظار البحاثة والعلماء . منها نص وجد في قبرص ، ونقش قديم يعود عهده للاتروسكين سكان ايطاليا القدماء قبل الرومان . ولقد طور شعب المايا من امريكا الوسطى اسلوباً كتابياً تصويرياً متقناً ، وقد امكن حل بعض الارقام والتواريخ ، ولكن لم يمكن حل وفهم نصوص اللغة نفسها .

لعل من المفيد ، قبل ان نختم هذا الفصل عن تطور الكتابة في العالم القديم حتى اختراع الحروف الهجائية ، ان نأتي بلمحة سريعة عن قصة كشف وحل رموز بعض هذه الكتابات القديمة كالهيروغليفية والمسمارية ، وهي قصة جديرة ان تروى وتعتبر من اروع القصص في العالم اثارة وأهمية .

ان الكشف عن تاريخ مصر القديم لهو اروع فصل في كتاب علم الآثار . هذا وان علم الآثار المصرية الحديث هو نتيجة ثانوية من نتائج الحملة الفرنسية الاستعمارية على مصر وحروب نابليون بونابارت في الشرق . فمن المعلوم ان نابليون بونابارت لما قاد الحملة الفرنسية على مصر سنة ١٧٩٨م اصطحب معه طائفة من العلماء الذين كانوا يهتمون بمصر اهتماماً ظنه الناس آنذاك سخيفاً لامعنى له ، وكانوا يسعون لفهم التاريخ فهماً اوفى وافضل مما كان يفهمه المؤرخون آنئذ . وكانت هذه المجموعة من العلماء هي التي كشفت للعالم الحديث عن هياكل الاقصر والكرنك ؛ كما كان كتاب وصف مصر المحكم المفصل ١٨٠٩ ـ ١٨١٣ م الذي اصدره المجمع العلمي الفرنسي اول خطوة هامة خطاها العلماء في سبيل دراسة هذه الحضارة المنسية .

على ان هؤلاء العلماء ظلوا سنين طوالاً عاجزين عن قراءة النقوش الباقية على الآثار المصرية ؛ وليس ما بذله شامبليون احد هؤلاء العلماء من جد وصبر في سبيل حل رموز الكتابة الهيروغليفية الا شاهداً من شواهد كثيرة على الروح العلمي الذي امتاز به علماء تلك الحملة . وعثر شامبليون آخر الامر على مسلة مغطاة بهذه الرموز المقدسة ، مكتوبة باللغة المصرية ، ولكن في اسفلها نقوشاً باللغة اليونانية عرف منها ان هذه الكتابة ذات صلة ببطليموس وكليوباترة .

وخطر له ان احدى العبارات الهيروغليفية الكثيرة التكرار والتي يحيط بها الاطار الملكي [الخرطوش] هي اسم الملك والملكة [بطليموس وكليوباترة] فهدته هذه الفكرة سنة ١٨٢٢م الى تمييز احد عشر حرفاً من الحروف المصرية . ولكن ذلك كان مجرد حدس ولم يكن يقيناً . وكان هذا الكشف اول دليل على ان مصر القديمة كان لها حروف هجائية ، وان كانت ممزوجة ومختلطة ببقية الرموز الهيروغليفية . ثم طبق هذه الحروف على رموز وجدها على حجر اسود عثر عليه جنود نابليون قرب مصب فرع رشيد . وكان على حجر رشيد هذا ، كما دعي منذ ذلك الوقت ، نقوش كتبت بثلاث انوع من الكتابات : اولاها الهيروغليفية ، وثانيها الديموطية ، وثالثتها اليونانية . وقد استطاع شامبليون بفضل علمه باللغة اليونانية وبالاحد عشر حرفاً التي عرفها من المسلة الاولى ، وبعد جهد متواصل استمر اكثر من عشرين عاماً ان يحل رموز هذا النقش كلها ، وان يعرف الحروف المصرية باجمعها ، وان يمهد السبيل للكشف عن عالم عظيم مفقود . وكان هذا الكشف من اعظم الكشوف في تاريخ علم التاريخ .

ولابد من التنويه الى ان شامبليون قد استفاد من جهود كل من اكريلاد السياسي السويدي [عام ١٨٠٢م] وتوماس يونج العالم الطبيعي الانجليزي صاحب الكفايات المتعددة [١٨١٤م] اللذين تمكنا من حل بعض رموز حجر رشيد ، فكان في ذلك عون للباحث الفرنسي على حل بقية الرموز .

اما قصة حل رموز الكتابة البابلية ، فلا تقل اهمية واثارة عن قصة حل رموز الكتابة الهيروغليفية . ذلك ان الكتابة البابلية ، كما سبق وقلنا ذلك ، حيرت العلماء زمناً طويلاً حتى تمكنوا من حلها . وتفصيل ذلك ان جورج جروتفند استاذ اللغة اليونانية في جامعة جوتيخن ابلغ المجمع العلمي في تلك المدينة سنة ١٨٠٢م انه ظل عدة سنين يواصل البحث في بعض مخطوطات مسمارية وصلت اليه من بلاد الفرس القديمة ، وانه استطاع آخر الامر ان يتعرف على ثمانية من الاثنين والاربعين حرفاً المستعملة في هذه النقوش ، وانه ميز ثلاثة من اسماء الملوك المدونة فيها . وظل الحال كذلك او مايقرب من ذلك حتى عام ١٨٣٥م حيث تمكن هنري رولنسن احد موظفي السلك السياسي البريطانيين في ايران ، وعلى غير علم

منه بما توصل اليه جروتفند ان يقرأ ثلاثة اسماء هي هستسبس ودارا وحشارشاي [اكزركس] في نقش مكتوب بالخط الفارسي القديم ، وهو خط مسماري مشتق من الكتابة البابلية ، وامكنه بفضل هذه الاسماء ان يقرأ الوثيقة كلها في آخر الامر . ولكن هذه الكتابة ، وان تكن مشتقة من البابلية ، الا انها لم تكن البابلية نفسها . وقد بقي على رولنسن ان يعثر على حجر رشيد بابلي كما عثر شامبليون على حجر رشيد مصر اي على نص واحد مكتوب باللغتين الفارسية القديمة والبابلية . وهذا ما عثر عليه في مكان يعلو عن سطح الارض بنحو ٣٠٠ قدم . وكان هذا النقش على صخرة يتعذر الوصول اليها عند بيهستون في جبال ميديا حيث امر دارا الاول الحفارين ان يسجلوا حروبه وانتصاراته بثلاث لغات هي الفارسية القديمة والاشورية والبابلية . وظل رولنسن ، يوماً بعد يوم ، يرقى هذه الصخرة معرضاً بذلك حياته لاشد الاخطار . وكثيراً ماكان يشد نفسه بحبل وهو ينسخ كل حرف من حروفها بعناية بالغة حتى لقد كان احياناً يطبع النقش على عجينة لينة . وبعد جهد دام اثنتي عشر سنة كاملة نجح في ترجمة النصين البابلي والاشوري [١٨٤٧م] . وارادت الجمعية الاسيوية الملكية ان تتثبت مما وصل اليه رولنسن وغيره من العلماء في هذه الوثيقة وفي غيرها من الوثائق ، فارسلت الى اربعة من علماء الآثار الاشورية اربع صور من وثيقة مسمارية لم تكن قد نشرت آنئذٍ ، وطلبت الى كل منهم على انفراد ان يترجمها منفصلاً عن زملائه الثلاثة الآخرين دون ان يتصل بهم او يراسلهم . فلما جاءت الردود وجدت كلها متفقة بعضها مع بعض اتفاقاً يكاد يكون تاماً . وبفضل هذا الكفاح العلمي المنقطع النظير اتسعت دائرة البحوث التاريخية بما دخل فيها من علم بهذه الحضارة الجديدة .